

الرواية المغربية المعاصرة .. رؤية إسلامية

الدكتور خالد بن الحبيب الداودي - المغرب

أستاذ التعليم العالي، جامعة مولاي إسماعيل،

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مكناس

الموضوع الإشكالي ومنهج الدرس :

غاية هذا العرض الجواب عن الأسئلة الآتية :

إلى أين تسير الرواية المغربية المعاصرة؟ وإلى أين يمضي الأدب المغربي المعاصر؟ وكيف هي مسيرته؟ هل يمضي إلى النجاة أم إلى الضياع؟ وإلى أي حد التزمت هذه الرواية بمقومات الهوية كلا أو جزءا؟ وانطلاقا من الهوية الأساس التي وسمت هذا البلد وأهله منذ قرون عديدة، وفي سياق الحديث عن إسلامية المعرفة وإسلامية الأدب بسائر فنونه نتساءل: هل الرواية المغربية المعاصرة رواية إسلامية؟ أو بالأحرى، ما نصيبها من الإسلامية؟ وتبعاً لذلك، هل توجد رواية إسلامية في مغرب العصر الحاضر؟ وما حقيقة الإسلامية وما طبيعتها في الرواية المغربية المعاصرة؟ أين تتحقق الإسلامية في الرواية وما تجلياتها؟ وقبل ذلك وبعده، نتساءل: ما هي الرواية الإسلامية؟

إننا نضع هذه التساؤلات لأن الغاية من هذه الدراسة هي معالجة الرواية المغربية المعاصرة بمنظار إسلامي، أعني البحث عن الأثر الديني في الرواية من جهة، وتلمس المظاهر غير الإسلامية في النص الروائي لدى الروائيين المغاربة اعتمادا على المتن الروائي لعينة مختارة منهم خلال مرحلة زمنية محددة من جهة أخرى، والموازنة من خلال قضيتين شائكتين هما العقيدة والجنس بين رواية ملتزمة بمقومات الهوية ورواية مغرقة في الحداثة الغربية، يهيمن على جانب منها غير قليل من العبث والمجون والغرابة والاعتراب، وأحيانا قدر من التسبب والسقوط وانتظار الذي يأتي ولا يأتي...

ليس القصد إذن في هذه الدراسة هو البحث عن أسباب حضور الدين أو الجنس في العمل الروائي وأبعاد هذا الحضور ودلالاته... وإنما القصد البحث في كيفية هذا الحضور وفي طريقة تعامل الكاتب معه شكلا ومضمونا.

هذا، وقد اعتبرنا المتن الروائي غير الإسلامي المتن الإشكالي أو المتن العقدة، وجعلنا المتن الإسلامي المتن البديل أو المتن الحل.

تمثل الأول الروايات الآتية مرتبة أبجديا:

زمن الأخطاء لمحمد شكري - الضوء الهارب، ولعبة النسيان لمحمد برادة - ليلة القدر للطاهر بنجلون، واخترنا للمتن الإسلامي أحمد التوفيق بروايته جارات أبي موسى، وفريد الأنصاري بكشف المحجوب، وإدريس اليزامي بجنة الطوارق.

هذا، واعتبار هذا المتن بديلا لا يعني خلوه من الهفوات والفلتات كما أن اعتبار المتن الأول غير إسلامي لا يعني خلوه من المعاني واللمسات الإسلامية، ولكنه الغزو الثقافي والاستيلاء الفكري الذي وقع في شراكه بعض أبناء هذه الأمة فصيروهم أشخاصا دخلاء على مجتمعهم غرباء عنه..

لقد حكمنا في اختيار هؤلاء الكتاب إضافة إلى المغربية والمعاصرة بمفهومها الزمني المقاييس الآتية:

١- الأدبية (بالنسبة إلى المتن الروائي المعتمد، وإلا فالأدبية باب مفتوح).

٢- التراكم النوعي في الإنتاج الروائي.

٣- الانسجام بين روائي كل فريق أو جلهم في الرؤية الفكرية.

٤- الدعوة إلى الأدب الإسلامي (وهذا الشرط خاص بالروائيين الإسلاميين)

هذا عن الروائيين، أما فيما يخص الروايات، فقد حرصنا - ما أمكن ذلك - على انتقاء النصوص التي يكون مضمونها المغربي أو إعطاء الأولوية لها على غيرها، واعتمدنا في المقام الأول الروايات المنشورة، كما اقتصرنا على المتن المكتوب بالعربية الفصحى أو المترجم إليها.

لقد سلكنا في دراسة موضوع الرواية المغربية المعاصرة بمنظار إسلامي الخطوات الآتية:

- ١- تحديد إشكال الموضوع، وبيان منهج الدراسة وتصميمها وغاياتها، والتعريف بمتنها وبمقاييس اختياره.
- ٢- بحث موضوع العقيدة في الرواية غير الإسلامية في الوطن العربي خصوصا في المغرب الأقصى.
- ٣- بيان حكم الدين في بعض مسائل العقيدة مع إبراز تجلياتها في الرواية الإسلامية.
- ٤- دراسة قضية الجنس في الرواية غير الإسلامية في الأدب العربي، وبخاصة في المغرب.
- ٥- عرض المتن البديل مع بسط وجهة نظر الإسلام في تناول المسألة الجنسية.
- ٦- الختم ببعض التوصيات.

المقدس (الدين) في منظار الروائي المغربي:

حول حضور الدين في الرواية العربية المعاصرة وحول تعامل الكاتب معها نلاحظ ما يأتي:

- ١- وصف الله بما لا يليق بجلاله كما في رواية وليمة لأعشاب البحر لحيدر حيدر، ورواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ.
- ٢- السخرية من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم في رواية أولاد حارتنا.
- ٣- القول بصلب المسيح عليه السلام في أولاد حارتنا.
- ٤- سب الصحابة رضوان الله عليهم في ثلاثية نجيب محفوظ.
- ٥- مسخ الشخصية المتدينة في المجموعة الروائية «الثلاثية» والقاهرة الجديدة وزقاق المدق لنجيب محفوظ ورواية وليمة لأعشاب البحر لحيدر حيدر.
- ٦- خدش الحياء مثل ما نجد في رواية امرأة عند نقطة الصفر لنوال السعداوي.

أما في المغرب فتستخلص من النصوص المختارة المعتمدة المدروسة ما نصه:

١- التطاول على جلال الله.

٢- التطاول على حرمة الملائكة: على حد ما نقرأ في ليلة القدر للطاهر بنجلون «لقد أنجز الملائكة نصف عملهم، إنهم يمضون دوماً مثني مثني، خاصة لأخذ الروح، في الواقع، يحط أحدهما على الكتف الأيمن، والآخر على الكتف الأيسر، وبنفس الحماس، يأخذان الروح بحركة بطيئة ولطيفة، إلى السماء، لكنهما في هذه الليلة يتظفان، لا وقت لديهما للانشغال بشيخ في رمقه الأخير»^(١).

٣- اعتبار القرآن الكريم شعرا رائعا ووضع أسئلة مغلوطة عن الإسلام.

٤- احتقار المسجد.

٥- تشويه صورة الجنابة وطقوسها أعني الاستخفاف بشخص الميت، والاستهانة بحدث الموت والسخرية منه، لنستمع للطاهر بنجلون حيث يقول: «وما لبث أن شرع بعض أطفال الأزقة الذين تبعوا الموكب في الرقص، ثم كما يتم في مشهد للباليه، اقتربوا من الحدث ورفعوه، وأخذوا يدورون حول أنفسهم مدندنين لحنا أفريقيا، ثم بإيماءات وحركات بطيئة وضعوه داخل أحد القبور التي تم حفرها في الصباح، مرتاعين، هرول اللحدون وطرذوا الأطفال مهددينهم بالرفوش والمعاول»^(٢).

٦- تشويه صورة المقبرة، أي الاستخفاف بالموتى والسخرية من الموت، كما في رواية ليلة القدر، يقول المؤلف: «كان أحد مرتلي القرآن قد غفا فوق أحد القبور، وبعض الأطفال يلعبون فوق الأشجار، كان ثمة عاشقان مختفيان خلف شاهدة عالية جدا لكي يتمكنوا من تقبيل بعضهما دون أن يراهما أحد، وكان هناك طالب شاب يقرأ هاملت وهو يمشي ويقوم بحركات عديدة، تم ترجمت إحدى النساء، بثياب العرس، من على حصان أبيض، وعبر المقبرة فارس على فرسه يرتدي غندورة زرقاء من الجنوب، كان يبدو عليه أنه يبحث عن شخص ما»^(٣).

(١) ليلة القدر ص ٢٠، الطاهر بنجلون- ترجمة محمد الشركي- دار توبقال، ط٢-١٩٨٨

(٢) المصدر السابق ص ٢٨

(٣) السابق نفسه.

٧- السخرية من المتدين وتشويه صورته وتجريح شخصيته وخذش كرامته طعنا في الدين مثل ما نجد في ليلة القدر تعليقا على صوت المؤذن: «قد ينخفض صوت هذا الغبي الذي ينهق، يجب أن يعاش الدين في صمت وتأمل، وليس في هذه الجلبة التي تكدر صفو ملائكة القدر»^(١)، وقول الطاهر بنجلون مثلا على لسان زهرة بطلة الرواية في وصف المتحجبات: «رأيت خمس نساء يدخلن واحدة تلو الأخرى، لابسات بنفس الطريقة: جلابة رمادية، وشاحا أبيض يخفي الشعر ابتداء من الحاجبين، اليدين في قفازين، والوجه شاحب لا أثر فيه لأي تبرج. كن جميعا دميمات، وينبعث منهن الضيق. لقد فهمت من كانت أمامي: طائفة من الأخوات المسلمات، المتعصبات الشرسات»^(٢)، أما محمد شكري فيقول في حق المتدينين «أحسني، أحيانا، مثل ثور المصارعة الذي يخرج من نفق الظلام إلى النور لينطح الهواء، ويشحد أماميته في الرمل مبددا صدمته قبل أن يبدأ صراعه مع قدره المحتوم. إنه العيش في زمن الأخطاء. لقد تلوثت بليل الشارع. حتى مجائنه اللطفاء تصومعوا. صاروا عقلاء! استطالت لحاهم! ليس بدعة في حياتهم، لكنما استسلام»^(٣).

٨- سب الدهر: يقول محمد برادة في روايته الضوء الهارب على لسان العيشوني البطل: «سكت، حاول أن يحتمي بالصمت، لكنه فوجئ بغيلانة تطلب منه أن يصب لها كأس (ويسكي)، أخذت تمص الشراب مصات متتالية متلذذة بصوت مسموع قبل أن تقول: الله يلعن هذا الزمان»^(٤)

٩- شتم القدر: جاء في رواية الضوء الهارب مثلا على لسان بطلها العيشوني مخاطبا نفسه: «الأهم هو: كيف تردم الهوة التي انتصبت بينك وبين العالم الخارجي حين سقطت كل مصداقية عن مواقفك وكلامك، خلصة، وتحولت إلى ممثل وسط جوقة لا تحصى من الممثلين، تؤدي دورا في مسرحية يخرجها قدر أعور، أو إرادة عمياء»^(٥).

(١) المصدر المذكور ص ١٧

(٢) نفسه ص ١٢٥

(٣) زمن الأخطاء ص ١٦٤، محمد شكري- ط ٤- ١٩٩٩

(٤) الضوء الهارب ص ٧٧، محمد برادة- نشر الفنك- ط ١- ١٩٩٣

(٥) المصدر السابق ص ١٧٤

١٠- التمدخل في أمور الغيب من قبيل الحساب والعقاب بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير: مثلما نجد في رواية ليلة القدر على لسان بطلتها: «كنت أعلم أن أبي، رغم صلواته وصدقاته، سيقوم ردحا من الزمن في الجحيم. وأنا حالياً متيقنة من ذلك. إنه هناك دون ريب يدفع ثمن معاصيه، ومن المرجح أنني سألحق به ذات يوم، باعتباري المصدر الرئيس لآثامه، لكنني قبل ذلك، سأعيش، هذا مكتوب...»^(١).

١١- التمرد على الدين والأخلاق: نلمس ذلك مثلاً في كلام بطلة ليلة القدر «كنت أكافح في صمت، دون أن أدع شيئاً يظهر لكي أخرج نهائياً من تلك المتاهة الضارة بالصحة. كنت أصارع الشعور بالذنب والدين والأخلاق والأشياء التي كانت تهدد بالظهور ثانية، كما لو أنها تروم توريطي، تلتطخي، خيانتني، وتدمير القلة القليلة التي كنت أحاول الحفاظ عليها من كياني»^(٢).

١٢- الصراع النفسي نتيجة الفراغ الروحي: مظاهره متعددة وتجلياته مختلفة نخترلها فيما يأتي:

أ- الإحساس بالتوتر والرعب والعذاب والموت...

ب- الشعور بالضياع والخواء والغموض...

ج- الشوق إلى الاغتراب...

د- البحث عن الذات، عن الضوء الهارب، عن الحقيقة والمتعة وجوهر الأشياء...

أما أمثلته فعديدة، غير أن أغلبها يحضر في رواية الضوء الهارب نختر منها ما يأتي:

جاء في دفاتر العيشوني ما نصه: «أساءل عما إذا كنت أعيش مرحلة عميقة، مطبوعة بتوترات دائمة بين الجنوح إلى النظام والانجذاب إلى الفوضى، بين الانبهار والقلق، بين اللايقين والرضى بالموروث... لاشيء مما أسمع أو أفرؤه ينير لي هذا السديم الذي يلف كل شيء»^(٣).

(١) ليلة القدر ص ٥٨

(٢) المصدر السابق ص ٦٤

(٣) الضوء الهارب ص ١٦٢

بعد تصويره لشعوره بالتوتر والحيرة والغموض... يعبر العيشوني في موضع آخر من الرواية عن بحثه عن أسرار الكينونة بقوله: «هل كان بالإمكان أن تجري حياتي وفق مسار آخر؟ لا أستبعد ذلك، لكن ماذا يجدي أن تكون على غير ما هي عليه؟ وأن يكون العالم أيضا على شكل آخر؟ هل كان سينعدم من يشغف بالحقيقة، بالفن، بالجري وراء ما يتوهم أنه جوهر الأشياء؟»

استغرقت رحلتي أمدا طويلا وأنا أبحث عن أسرار الكينونة والغياب، عن الكيمياء التي تضي الشفافية على ما نعيشه كل يوم، حيرتي تزداد، ومعها تتراكم الأسئلة^(١). لا غرابة أن يطغى الحديث عن الذات وهمومها إذا علمنا أن أغلب الأعمال الروائية المعتمدة هي في حقيقتها سير ذاتية. غير أن البحث عن الذات ممتع بقدر ما هو مضمّن، وفي ذلك يقول العيشوني في دفاتره: «الجري وراء الضوء الهارب عملية تتضح بالعذاب، لكنها ترشح بالمتعة وإغراءات السراب»^(٢).

وبعد؛ كيف هي طبيعة اللغة المستعملة في وصف مثل هذه الحالات النفسية الذاتية أي فيما يسمى البوح وما يعرف بالاعتراف؟ عن هذا السؤال يجيب عقار قائلا في معرض دراسته للغة الخطاب في دليل العنفوان: «هناك الكلمة التي تستوحي معجمها من السجل الذاتي، سجل البوح والاستيهام والاعتراف، والمشاكسة كذلك؛ فمن خلال هذا المعجم تنغمر الذات في ماضيها المشروخ وفي أحلامها أي فيما تريد أن تكون لا فيما هي. الكلمة هنا تتسم بالتوتر ويكونها صدى للرغبة المؤودة وللأحلام المنكسرة» الرواية المغاربية^(٣).

المقدس في التصور الإسلامي

نهى الرسول صلى الله عليه وسلم استعمال بعض التعابير الخالية من حسن الأدب مع الذات الإلهية العلية المقدسة، من ذلك مثلا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه "لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه

(١) المصدر المذكور ص ٦٩

(٢) نفسه ص ١٧٧

(٣) الرواية المغاربية ص ١٦٦

لا مكره له". وفي رواية لمسلم: "ولكن ليعزم، وليعظم الرغبة فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه".

وورد في الحديث القدسي قوله عز وجل: "يؤذيني ابن آدم فيسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار". وفي حديث آخر: "لا تقولن أحدكم: يا خيبة الدهر". وقال صلى الله عليه وسلم لأم السائب أو أم المسيب: "لا تسبي الحمى...". وقال أيضا: "لا تسبوا الريح..."

كما أمر الإسلام بتقدير الخالق عز وجل وتبجيله؛ فقد دعا المسلم إلى احترام أخيه وتوقيره وحسن معاشرته. من ذلك نهيه تعالى عن احتقار المسلم، والتشابر بالألقاب، والغيبة والنميمة والتجسس... قال عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْحَرُونَهُمْ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴿١٢﴾﴾ (الحجرات: ١١-١٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، وقال أيضا: "كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه".

إذا كان الحزن مثلا مقبولا شرعا لقوله سبحانه في وصف حال يعقوب عليه السلام بعد فقدده ولده: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٤)، وقوله سبحانه على لسان النبي يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦).. إذا كان هذا الأمر جائزا كما أسلفنا، فإن اليأس مرفوض بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧)

هذا، وقد نهى الشرع عن الاسترسال في الغضب لقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تغضب..."، وكره تمنى الموت لقوله عليه الصلاة والسلام: "لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه".

وأوصى ببعض الأذكار والأدعية لجلاء الحزن، وذهاب الهم والكرب، والوقاية من البلاء أو النجاة منه والتسليم للقضاء من غير عجز ولا تواكل ولا تفريط وعدم

الاستسلام للحسرة والحيرة... لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٥٦)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "استعن بالله عز وجل ولا تعجز". وكان عليه الصلاة والسلام يستعيز بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء.

الدين في الرواية الإسلامية المعاصرة:

تمثل هذا المحور بامتياز في الرواية الإسلامية المعاصرة ثلاث روايات لتجيب الكيلاني -رحمه الله- هي على التوالي: ليالي تركستان، وعذراء جاكرتا، وعمالقة الشمال.

في هذه الروايات الثلاث تناول الكاتب واقع المسلم المعاصر مصورا التحديات الكبرى التي تواجه دينه وتحارب عقيدته بصفتها مصدر قوته الأول، ومن ثم كانت هي الهدف الأول من قبل القوى المعادية الحاقدة.

أما الرسالة التي يريد الروائي تبليغها فهي: أن كل صاحب عقيدة مبتلى، وأن كل ممتحن فائز بإحدى الحسنين إن صح إيمانه وثبت وصابر ورابط وسلك طريق الأنبياء والمجاهدين... وأعد ما استطاع من قوة وفي مقدمتها قوة العقيدة وقوة الدين.

هذا فيما يتعلق بالرواية الإسلامية في مشرق الوطن العربي في العصر الحاضر، أما في المغرب فنلاحظ ما يأتي:

١- إعلاء شخص المتدين: يتجلى ذلك في جارات أبي موسى لأحمد التوفيق، وجنة الطوارق لإدريس اليزامي، وكشف المحجوب لفريد الأنصاري، غير أن هذه الظاهرة تبرز بقوة وتحضر بكثافة في الجارات من ذلك مثلا:

- ذكر كرامة حج أبي موسى - جارات (ص ٨٨ و١٢٦-١٢٧).

- ذكر ورع أبي موسى - نفسه (ص ٩٦).

- ذكر كرامة حك الجلد - نفسه (ص ١٠٠-١٠١).

- ذكر كرم أبي موسى رغم فقره، وإيثاره رغم تقشي المجاعة - جارات (ص ١٨١-١٨٢).

- ذكر كرامة طلب أبي موسى الغيث- نفسه (ص ١٨٧) وما بعدها.
- وصف دمانة أخلاق شامة بطلة الرواية وذكر علمها (ص ٩ و ٧٦ و ١٢٣)، وفي ذلك يقول أحمد التوفيق: "كانت على الدوام مرجع من حولها من النساء في رقائق جميل المعاشرة بين الأزواج وفي معالجة ما يعتور بنات جنسها من الأحوال الخاصة وفي الإيحاء بالإشارات الكيسة المعينة على مداراة العواطف، فما بالك بمعرفتها بفرائض الدين ومندوبات الأعمال وما يليق بكل مقام من الموعظة الحسنة"^(١).
- وصف ورع شامة (ص ٢٢).
- ذكر حج شامة (ص ٥١).
- وصف ثبات شامة في المحن، من ذلك خيانة زوجها لها (ص ١٧٢) ورحيله عنها (ص ١٧٧).
- ٢- احترام حدث الموت واستقباله بإجلال وإيمان نحو قول اليزامي على لسان أحد شخوص روايته: "عانقت الموت بعينين مفتوحتين، استجذبت بكل الآيات القرآنية والأحاديث والأدعية التي حفظتها عن ظهر قلب أيام الصف أو تلك التي كانت ترددها جدتي دبر كل صلاة فجر بصوتها المتهدج المتثائب، بلحنها وخطئها"^(٢).
- ٣- الإشادة بالشهادة والاستشهاد، على حد قول الراوي في جنة الطوارق: "الشهادة حياة أخرى أعمق وأشمل. هو الالتحاق بركب الملائكة والترفع عن التراب. وداعا أيها الأحبة، إلى اللقاء في الجنة"^(٣).
- ٤- وصف صلاة الجنائز ومراسيمها بما يناسبها من إكبار وتضرع: جاء في جارات أبي موسى ما نصه: "حمل أبو موسى إلى الجامع الأعظم للصلاة عليه (...). غصت جنبات الجامع الأعظم وساحته والأزقة المجاورة له بالمصلين (...). وكانت صلاة خشوع وسكون لم يسمع فيها إلا ما تساقط من جري دموع المأقي وما غلب رجالات

(١) جارات أبي موسى ص ١٢٣، أحمد التوفيق- دار القبة الزرقاء ١٩٩٧م.

(٢) جنة الطوارق ص ١٤، إدريس اليزامي- مطبعة فضالة المحمدية ط١- ٢٠٠٠

(٣) المصدر المذكور ص ٢٣

أشداء ونساء رقيقات العواطف من عصي النحيب (...) وبعد الصلاة تزاور الناس من جديد وتراحموا وتسامحوا...^(١).

٥- تقديس الذات الإلهية والدعوة إلى تذكر نعم الله وحمده على آلائه كقول بطل جنة الطوارق: "أيها العزيز، احمد الله على ذرات الندى والقطر، وشحنات الشمس والقمر، ورقصات النحل وتغاريد الطير. أما الأدميون فقلما يتذكرون، وبالأحرى يواسون أو يعتنون..."^(٢).

٦- تمجيد الملائكة: قال الراوي: "حضرت في ذاكرتي المثقوبة بالدوار فأعدت بعض أقاويل الجدة رحمها الله، ومعلم الصف الابتدائي حول الملائكة: هم مخلوقات نورانية.. قلت: لاشك أن المخلوقات التي تزورنا منهم، فهم مغلفون بالبياض النوري، لا يتحدثون إلينا، ويكتفون بالتدوين في سجلات كبيرة.. إنهم الحفظة الكاتبون"^(٣).

٧- التمرد على الطرقية، كقول محجوب بطل رواية كشف المحجوب: "عجبا! كيف يمكن للخرافة أن تخلق كل هذه السكينة في نفوس المريدين؟ أي سحر ذاك الذي يمارسه الشيخ فيقنع الناس بفقرهم وجهلهم البليد؟ وارتفعت أمام عيني رقصات (العمارة) في بيتنا القديم... فرأيت شيخ أبي يلهث وسط حلقة من الفقراء، وهم يركزون الأرض على نقطة واحدة، يضبط لهم ميزان الصوت بيديه...عجبا! .. أي تعبير بدائي هذا الذي يغري النفوس ويطربها إلى حد السكر؟"^(٤).

هذا، ولا تخلو بعض الروايات المغربية المعاصرة غير المحسوبة على الاتجاه الإسلامي من حضور للمقدس فيها، نذكر منها على سبيل التمثيل: أطياف الظهيرة لياسين بهوش، و جنوب الروح لمحمد الأشعري، و الضريح لعبد الغني أبو العزم، والأبله والمنسية وياسمين للميلودي شغموم، و بدر زمانه وسعد السعود لمبارك ربيع، والفتى زين شامة ومجنون الحكم لبني سالم حميش...

(١) جارات أبي موسى ص ١٩٢

(٢) جنة الطوارق ص ٩

(٣) المصدر السابق ص ١١

(٤) كشف المحجوب ص ٢٥-٢٦، فريد الأنصاري- أنفوبرانت- ط١- ١٩٩٩

نشير في خاتمة هذا المبحث إلى أن ما ورد فيه يعتبر محاولة لتتعيد نظرية الرواية الإسلامية ومساهمة في التعريف بها، كما يعد مدخلا لتأصيل منهج إسلامي في نقدها.

الرجل والمرأة والشيطان ثالثهما: (الجنس المحرم) في الرواية المغربية

عن مفهوم علاقة الرجل بالمرأة-الجسد، وصورة هذه الأخيرة في الرواية العربية المعاصرة نلاحظ أن الحديث يكاد أن ينحصر في وصف المعاشرة وتصوير المضاجعة التي لا تخلو منها رواية من روايات نجيب محفوظ^(١) نذكر منها على وجه الاختصار:

١. حديث نجيب محفوظ في اللص والكلاب^(٢) عن ممارسة شخصية نور الدعارة ومعاقرتها الخمر.

٢. مضاجعة إسماعيل الشيخ وصفوان رجل الأمن لزينب في رواية الكرنك.

٣. مضاجعة عيسى لريري ابنة الليل في رواية الخريف والسمان.

٤. معاشرة إبراهيم فرج لحميدة وتعاطي هذه الأخيرة الدعارة والعهر والشذوذ... في رواية زقاق المدق.

٥. معاشرة جابر سلمان لنفيسة في بداية ونهاية.

٦. حديث نجيب محفوظ عن سيرة شخصية إحسان، الطالبة التي دفعها والدها لممارسة الدعارة في رواية القاهرة الجديدة.

لا نريد أن نبجح مصر دون الوقوف عند أعمال الروائي الكبير إحسان عبد القدوس خاصة روايته أنا حرة، التي تحدث فيها عن حب أمينة لعباس. وحديث سهيل إدريس في الحي اللاتيني عن علاقة فؤاد اللبناني-بطل الرواية- العاطفية والجنسية بالفتيات الفرنسيات خصوصا جانين.

(١) لمزيد الاطلاع على مسألة الجنس في روايات نجيب محفوظ يراجع: كتاب «أزمة الجنس في القصة العربية» لغالي شكري ص ٧٥، دار الشروق- ط١- ١٩٩١م. وكتاب نجيب محفوظ بين الإلحاد والإيمان لديب علي حسن، ص ١٠٩، دار المنارة، بيروت، ط١- ١٩٩٧

(٢) كانت هذه الرواية مقررة لتلاميذ قسم البكالوريا المغربية لموسم ٢٠٠٧/٢٠٠٨

أما في المغرب الأقصى فتتجلى مظاهر المدنس في الرواية^(١) فيما يأتي:

١- وصف جسد المرأة الظاهر والباطن كما في الضوء الهارب ولعبة النسيان لمحمد برادة وفي زمن الأخطاء لمحمد شكري ودليل العنفوان لعبد القادر الشاوي بشكل متساو تقريبا.

٢- الترغيب في جسد المرأة (الترغيب في الجنس المحرم): نجده عند محمد برادة في الضوء الهارب، ولعبة النسيان وفي زمن الأخطاء ودليل العنفوان وكذا في ليلة القدر لطاهر بنجلون، غير أن هذا الترغيب يحضر بشكل صارخ في الضوء الهارب وفي زمن الأخطاء.

٣- تصوير الجماع ووصف المضاجعة والمباشرة، يرافقه وصف جسد المرأة ومجلس السكر أحيانا، نلاحظ ذلك بصفة قوية في الضوء الهارب ولعبة النسيان ودليل العنفوان. إن وجود وصف للجنس في الرواية لا يعني أن الكاتب متواطئ مع أبطالها أو أنه يدعوا إليه، لأننا حينئذ ينبغي لنا أن نضع كثيرا من الروائيين في قفص الاتهام... وهذا أمر غير مقبول. أما بخصوص النساء اللواتي تم وصف أجسادهن أو الترغيب فيها فيدل على أن العلاقات الجنسية التي وقع تصويرها هي علاقات غير شرعية!

فما الذي دفع شخوص الروايات المعتمدة في هذه الدراسة إلى إقامة مثل هذه العلاقات المحرمة أو الوقوع فيها؟ هل ثمة أسباب عقدية وراء ذلك؟ ولم لا، ألا يوجد رابط بين الجنس-بصفتة سلوكا- والعقيدة؟ هل يمكن للمؤمن أن يزني؟ قال صلى الله عليه وسلم: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

من هنا يتضح أن حضور الجنس بهذا الشكل المدنس (الفاكهة المحرمة - المتعة غير المقيدة) في بعض السير الروائية المغربية المعاصرة أنه انعكاس للفراغ الروحي الذي ذكرنا أنفا، وهو السبيل إلى الخلاص من التوتر والتيه واليأس... وهو الوسيلة لتحقيق الذات وجلب المتعة... وهو ما أشار إليه عبد الرحيم العلام في سياق دراسته لصورة الجنس في الضوء الهارب بقوله: «... إن قناة الجنس تبقى هي المعبر الرئيسي لعملية بحث الشخوص عن ذواتها وعن أزمنتها الهاربة»^(١).

(١) اقتصرنا على الإشارة إلى المصادر دون ذكر النصوص تنزيها لهذا البحث من الرفث...

وربما يكون حضور الجنس المندس واستحضاره في الرواية رغبة من الكاتب المغربي المعاصر في تعرية وجه قبيح من الوجوه المسكوت عنها في المجتمع الراهن، وفي ذلك يقول عبد الرحيم العلام في حق الضوء الهارب: «غير أن ما يجب التنصيص عليه، في هذا الإطار؛ هو أن استثمار الجنس كلفة وسلوكات لا يمكن ربطه بالعابر في حيوات الشخص، أو بالمراهنة على خطابات اختزالية وتبسيطية يكون منطلقها تجربة غرامية معيشة، بل إن الأمر يتجاوز هذه الحدود حينما يصبح متعلقا، في هذه الرواية بإعادة صوغ وتفجير سؤال الأزمة داخل المجتمع المغربي بعد انجلاء مجموعة من الأوهام، أي من خلال العمل على تفجير جوانب من السلوكات المسكوت عنها، وكذا النبش في مجالات ظلت مجهولة، مجالات ما زال يكسوها الكثير من الالتباس والغموض»^(٢).

٤- لغة الجسد: توظيف أسماء الأعضاء التناسلية للرجل والمرأة في سياق جنسي مكشوف كما هو الحال في روايتي زمن الأخطاء وليلة القدر.

٥- اللغة الساخرة: استعمال اللفظ الفاحش والعبارة الساقطة، والكلمة الخليعة الفاجرة في معرض السخرية والقذف والتناوب بالألقاب... تجد ذلك في الضوء الهارب وزمن الأخطاء وليلة القدر ودليل العنفوان... وما الأسلوب الساخر «سوى الكتابة عن موضوع جدي (الثورة والتغيير المجتمعيان) بمنوال ساخر ومضحك بسبب الكلمات أو الطباع أو الظروف أو الحركات والأشكال، وما الغاية من السخرية سوى التحرر من الإكراه والألم، وسوى تمرير خطاب نقدي جذري»^(٣).

ألم نقل: إن حضور الجنس أو استحضاره في الرواية سلوك ولغة تنفيس عن الذات، وتفجير للمكبوت والمسكوت عنه، وتفريغ للتوتر، وتعبير عن الرفض، وتمرد على الأنا والآخر، ورغبة في التحول والتغيير... وهو قبل هذا وذلك انعكاس للخواء الروحي والفقر العقدي. فكل إنسان مخبوء تحت لسانه، وكل إناء بالذي فيه ينضح، «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) رواية الأوهام وأوهام الرواية، ص ٨٢- عبد الرحيم العلام- منشورات جمعية الأعمال الاجتماعية لوزارة الشؤون الإدارية - ط ١- ١٩٩٧م.

(٢) المرجع المذكور ص ٧٨-٧٩

(٣) الرواية المغاربية- عبد الحميد عقار ص ٧٨، شركة المدارس للنشر والتوزيع- البيضاء- ط ١- ٢٠٠٠م.

الإسلام والجنس

إن تحكيم الرؤية الإسلامية لا يعني القفز على أسس الفن ومقاييسه في قراءة العمل الأدبي، ولا يعني أيضا التساهل في مبادئ الدين وأحكامه باسم الفن وتحت راية حرية الإبداع، أو التستر وراء خدعة التعبير المجازي والأسلوب الرمزي... ولكنه يعني إخضاع تلك القوانين والمعايير لتعاليم الإسلام وضوابطه، وبعبارة أخرى العمل على أسلمة قواعد الفن وموازينته في الإبداع والنقد على السواء. فعلى مستوى الإبداع الفني مثلا لا يوجد أدنى تعارض بين الدين والفن، فهذا كتاب الله المقروء آية في الإعجاز، وغاية في الفصاحة والبلاغة، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٤٢) (فصلت) وهو يصور لك مشهد الجماع سلوكاً بشرياً طبيعياً وضرورة حيوية، يحدثك عن المباشرة وما يترتب عنها بأسلوب في منتهى الحشمة والعتاف: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيْفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْنَا صَلَاحًا لَّنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٨٩)، وقوله تعالى مخاطباً رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم في شأن إحدى زوجاته: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ (الأحزاب: ٢٧)، وقوله أيضاً في مبيحات التيمم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (النساء: ٤٣).

واستمع إلى قصة النبي موسى مع ابنة النبي شعيب عليهما السلام، يصور لك لوحة جميلة مشرقة لمشاعر نبيلة، قال عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣) فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير (٢٤) فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إني أدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه، وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين (٢٥) قالت إحداهما يئآبت أستعجرت إني خير من أستعجرت القوى الأميين (٢٦) قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هتني (القصص: ٢٣-٢٧)

فهذا هو الرجل يعبر عن رغبته في المرأة بإشارة خفية: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وهذه هي المرأة تبدي الإعجاب بقوة ذلك الرجل وأمانته ورغبتها في

بقائه بجانبها بتلميح ذكي: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ أَسْتَجَرَّتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. ويفهم الأب مراد ابنته فيعرض الزواج من إحدى ابنتيه على الضيف...

أما قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز فتعد أنموذجا حيا للمراودة، ومثالا معبرا للمطاردة الجنسية التي استعملت فيها جميع أساليب الضغط والمساومة والإغراء، والكيد والمكر؛ من قذف وافتراء وتهديد بالسجن وغير ذلك. ولقد صور الذكر الحكيم مشهد هذه المطاردة وتتبع أشواطها في إيجاز دال، قال تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا... وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ (يوسف: ٢٣)، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف: ٢٤)، ﴿وَأَسْبَقَا الْأَبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ (يوسف: ٢٥)، ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لِيُسْجَنَ وَيَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ (يوسف: ٢٢)، ﴿وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ (يوسف: ٢٣).

وقوله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة: «إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل» فهل تجد في هذا الكلام البليغ والخطاب المبين انحرافا أو ميوعة؟!

هذا، وللقرآن والسنة تأثير بالغ في توجيه اللغة وترشيد التعبير، ومن ضوابطهما في ذلك:

١- الكناية عما يقبح التصريح به، كالتكنية عن الوطء والجماع والجنس في باب الحلال بألفاظ مختلفة غاية في الشرف والعفة والحياء مثل: الإتيان، والرفث، والتغشبية، والقرب، واللمس، والمباشرة، والنكاح.

٢- تجنب التعبير الخليع: ولو كان ذلك من باب المجاز أو من قبيل الرمز لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش المتفحش» رواه أبو داود. وقوله صلى الله عليه وسلم عن أنس رضي الله عنه: «ما كان الفحش في شيء إلا شأنه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه» رواه الترمذي وقال حديث حسن.

٣- تخير الكلم الطيب وتنقيح اللفظ وتحلية الأسلوب لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (الإسراء: ٥٣)، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (فاطر: ١٠). وقوله صلى الله عليه وسلم: «أطعموا الطعام وأطيبوا الكلام» رواه الطبراني، وقوله صلى الله عليه وسلم: «الكلمة الطيبة صدقة» رواه البخاري ومسلم وأحمد.

العطاء الإلهي الذي تجلى في خلقها الأنثوية، فجمالها الخارق يذكر بالله، ولا يمكن على هذا الاعتبار أن يكون عورة توقع في الفتنة»^(١).

٢- مدح العفاف: نحو قول الأنصاري يصف حياء ابنة الإمام صاحبة البستان وتحجبها: «كان الحياء رجفة خفيفة ينثر لون الاعتذار في فضائها؛ احتقانا جلناريا حتى قارب الانفجار... قرأت فيه حزن ملاك أخطأ طريق العودة إلى عالم الملكوت»^(٢)، إلى أن يقول في موضع آخر: «كانت تفتح الباب متخذة إياه جنة لجسمها، فلا يبدو منه إلا وجهها مطلا من بين ثنايا الإزار... تقبض على قفل الباب الكبير بيد وترفع في وجهي بيدها الأخرى مصباح النفط الصغير (...). كانت البسمة الحبية تتدفق ملء النور المتداعي (...). ولقد وددت لو أني رحلت مسافرا في هذا العفاف الوارف سفرا لا ينتهي أبدا»^(٣).

٣- استنكار التبرج والمجون: كما في تصوير الأنصاري - ساخرا- سيدة النادي وهي تلقي خطابا في أعضائه: «هذه عطور باريس تجتمع الآن بكل عهرها.. تطلق ضحكات مغرية من خلال اللائى والفساتين الكاشفة المشتعلة! تاج المجون الأنثوي يعرض الساعة خطابه الشارح... فاستمعوا له وأنصتوا...»^(٤).

٤- السخرية من تشييء المرأة وتوظيف جسدها: كقول الأنصاري جوابا عن سؤال: لأي شيء تصلح المرأة إذن؟ «نعم يمكنها أن تصنع أشياء كثيرة (...). مثلا يمكن أن تكون راقصة، أو موديلًا جسديًا للتصوير الفوتوغرافي، أو مادة سينمائية مشهية، أو لقطعة إشهارية حية لشيء ميت أو بضاعة معروضة في علبة ليل (...). أو مخدرا سياسيا لمعالجة المشاكل المستعصية على المخابرات، أو غواية صارخة في الشارع

(١) نفسه ص ١٢٢. وقول الروائي: «ولا يمكن على هذا الاعتبار أن يكون عورة توقع في الفتنة» غير صحيح. (المراجع).

(٢) كشف المحجوب ص ٢٢. وتشبيه المرأة بالملك يمثل هذه العبارات مما يوقع في المحذور من تسمية الملائكة إنانا، كما ورد النهي عن ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَكَنًا شَهَدَتْ لَهُمْ وَهُمْ لَمْ يَكُنُوا إِنثًا﴾ (الزخرف). (المراجع).

(٣) المصدر المذكور ص ٥٥-٥٦.

(٤) نفسه ص ١٥.

لمحاربة التطرف الديني، أوديكوراً لتزيين المكان، وترطيب أجواء العمل.. أعني سكرتيرة!»^(١).

٥- الحديث عن المباشرة بين الحق والاعتصام: في جارات أبي موسى حديث عن المباشرة حين تكون حقا، والمباشرة حين تصير اغتصابا. فمن أمثلة الأولى قول أحمد التوفيق بأسلوب كنائي إيحائي في شامة وزوجها القاضي الجورائي: «... وفجأة رأته يرغب في أن ينظر إلى زوجته كما يحل له أن يفعل. أخذ بيدها ودعاها لتنتصب واقفة فرأى ما رأى»^(٢). ومن شواهد الثانية قول الكاتب بلغة تلميحية عن خوليا إحدى جارات أبي موسى: «... وما هي إلا أيام حتى وقعت خوليا في المحذور وأصابتها الكارثة. فقد كانت اللصقة سببا في خروج خوليا مع جماعة من المنتزهين إلى سواني خارج الأسوار، وهنالك تعرضت لمعاملة فظيعة من طرف أولاد الأعيان، واختقت مع بعضهم هناك، ولم يعلم والدها بيدهو بذلك (...). وبعد أيام أرسل العامل إلى بيدهو من يأتي به ليخبره أن البنث في بيت أهل ولد متهم بالاعتداء عليها»^(٣).

٦- تجريم الزنا: إن الروائي المسلم حقا لا يمكنه إلا أن يوافق الشرع في تحريم الأكل من الفاكهة المحرمة، ومن هنا رفض محجوب راوي «كشف المحجوب» وبطلها ممارسة الفاحشة مع سيدة النقابة وتحديه لكل أساليب الإغواء والإغراء... يقول الأنصاري على لسان محجوب مخاطبا السيدة: «سألتها: ماذا تريدين؟ فضحكت وعيناها تغيبان وتحضران تحت تأثير الشراب ثم قالت بدلال: ألا تدري؟ إشعال النار الآتمة! ويحي! (يقول محجوب) وزوجها يسمع! ونظرت إليها متوسلا... فأجابتنني ببسمة تنبض بالإصرار! وأسلمت رأسي لكفي تضغطان عليه عسى أن أبصر باب الخروج!»^(٤).

(١) نفسه ص ٧٤

(٢) جارات أبي موسى ص ١٢-١٣

(٣) المصدر السابق ص ٨٢

(٤) كشف المحجوب ص ٩٢